الابن والحفيد

وَوُرِّثَ فَرعَ المجـد من آل هاشم
وجـاء كريماً مِن كِرامٍ أَمَاثِل ! !

جلس الفتى مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده ، وهو يُحتضَر . .

كان احتضار أبيه يَشغَلُه ويحزنُه .

لكنه مع ذلك ، وربما فوق ذلك ، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته ، ولعُه الشديد بأن يرى : كيف يلتقى الاثنان وجهاً لوجه ، البطولة والموت . . ! !

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة ، فإن مُمثل البطولة فى زمانه يتهيأ الآن للرحيل ، ويقترب الموت منه فى حفاوة صديق !

فلينظر الفتى – ما شاء – كيف يواجه الأبطال الموت .

* * *

وتململ الشيخ المحتضر فى فراشه ، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلاً . . حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه ، عانَقَتْهم من عينيه نظرات حانية ، امتدت واتسعت حتى وجدوا بَرْدَها فى صدورهم . .

ثم راح يوجه إليهم كلمات ، أراد أن تكون آخر عهده بهم ، وبالدنيا ! !

[يا معشر قريش . .
أوصيكم بتعظيم هذا البيت – الكعبة –
فإن فيه مَرضاة الرب ، وقوام العيش . .
[صِلُوا أرحامكم ، ولا تقطعوها ،
فإن صلة الرحم مَنْسَأةٌ فى الأجل . .
[اتركوا البغى ، فقد أهلَكَ القرون من قبلكم . .
[يا معشر قريش . .
أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ،
فإن فيهما شرف الحيـــاة وشرف الممات . .
[وعليكم بصدق الحديث . وأداء الأمانة . .
[ألا وإنى أوصيكُم بمحمد خيراً ،
فإنه الأمين فى قريش ، والصادق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . .
[ولقد جاءنا بأمر قَبِلَه الجنان ،
وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن . .

[وأَيْمُ الله لكأنِّى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قــد أجابوا دعوته ، وصدَّقوا كلمته ، وعظَّموا أمره ، فخاض بهم غَمرات الموت . .

[وَلكأنى به وقد مَحَضَتْه العرب وِدادَها ، وأعطته قِيادَها . .

[والله ، لا يسلُك أحد سبيله إلا رَشد ، ولا يهتدى بهديه إلا سَعد .

[ولو كان فى العمر بقيَّة ، لكَففتُ عنه الهزَاهز ، ولدفعت عنه الدواهى] .

* * *

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بنى هاشم ، واختصّهم بوصية أخرى .

[. . وأنتم يا معشر بنى هاشم

[أجيبوا محمداً ، وصدِّقوه ، تفلحوا وترشدوا] ! !

وأومأ إليهم ، ليعيدوه إلى ضجعته الأولى ، واستوى تحت غطائه . . وعَبرت لحظات ، تغشَّته بعدها سكِينَةُ الموت ! !

* * *

لقد أدَّى الراحل المسَجَّى ، آخر الأمانات لديه . . أمانة كان

يُحاذِرُ أن تُعجزه رهبة الموت عن أدائها ! !

ومال رأسه المثقلُ بالخوف ، على صدره المثقل بالإشفاق . .

ولكن . . الخوف مِمّن . . ؟

والإشفاق على مَنْ . . ؟

الخوف من قريش . . والإشفاق على ابن أخيه الذى حشدت قريشٌ له كل كيدها وبأسِها ، لأنه يهتف فيهم : أَنْ « لا إله إلا الله » . . ! !

أعرفتُم الآن عمَّن نتحدث . . ؟

أَجلْ – إنه هو . . أبو طالب ، شيخ قريش ، وسَيد جيله . .

وأما الفتى الذى كان يجلس مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، فهو ابنُه وفتاه : علىّ بن أبى طالب ! !

انظروا . .

ها هو ذا ، يُقبّل جبين أبيه ، ثم يسجّيه ، ثم ينهض فى ثبات ليدبّر أمره . .

إن غبطةً ظاهرة تُزاحِم فى نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة إذ رأى أباه يموت – حين يموت – لا صامتاً ، ولا مخذولاً . . بل خطيباً ، يلخص فى كلمات سواطع كل فضائل حياته التى عاشها فوق الأرض وبين الناس ، ويواصل فى إلحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل ، وإلى جانب المُمَثِّل الجديد والمجيد لها . . الداعى إلى الله بإذنه . . « محمد بن عبد الله » ! !

أجلْ . . فبقدر ما أحزن الابن فقد والده ، كانت غبطتُه إذ تلقَّى

فى لحظة الختام هذه ، أصدق عظات الحياة وأروعها :

عَظِّموا الكعبة . .

صِلُوا الرَّحِم . .

اتركوا البغى . .

أجيبوا الداعى . .

كونوا صادقين . .

عيشوا أمناء . .

وأولاً ، وأخيراً :

انصروا محمداً . .

فإنه الهادى إلى سواء السبيل . . ! !

* * *

مِنْ صُلْب هذا الوالد جاء « على » . .

ولقد كانت قريش كلها تنظر إلى « أبى طالب » نظرتها إلى زعيم .

الكل يحبه ، ويهابه ، ويحترمه ، لا لمكانته فى قريش فحسب . . بل قبل هذا وذاك ، لما يحمله من نفس كريمة ، وخصال عظيمة ، وشخصية عادلة فاضلة ، تبهرُ الناس بقوتها واستقامتها ، وشموخِها . . !

وإنه ليكفينا فى التعرُّف إلى شخصية هذا البطل لمساتٌ من مواقفه تجاه الإسلام ، وقريش . .

لقد وقع على كاهله دون أعمام النبى جميعاً ، ودون أهله وعشيرته كلهم ، عِبءُ مُناصرة الرسول ، ومقاومة قريش . .

وثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناوراتٍ ومؤامراتٍ تهد الجبال ! !

ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أُفقاً ، وأذكاهم قلباً ، وأوفرهم جسارة وعزماً .

* * *

فى الأيام الأولى لدعوة النبى ، رأى أبو طالب ولده – علياً – يصلى خفية وراء الرسول .

وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن ، قد اتبع محمداً . .

وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً .

ولما أتمَّ صلاته ذهب تلقاء والده وقال له فى صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه ! !

[يا أَبت . .

[لقد آمنتُ بالله ، وبرسوله ، وصدقتُ ما جاء به ، واتبعتهُ] .

فأجابه أبو طالب :

[أما إنَّه لا يدعوك إلا إلى خير ، فالزَمْه] .

ليس ذلك فحسب . . .

بل إنه رأى النبى يوماً يصلى ، وقد وقف « علىٌّ » إلى يمينه .

ولمح من بعيد ولده « جعفراً » فناداه ، حتى إذا اقترب منه قال له :

[صِلْ جناحَ ابن عمِّك]

[وَصلٍ عن يساره] ! ! !

سَعةُ أُفق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق

للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتُثْبِتَ صدقها وأحقيتها .

ولو أن إنساناً آخر غير « محمد » عليه السلام هو الذى جاء بهذه الدعوة ، ما تخلَّف أبو طالب عن نُصرته .

فهو – كما نراه فى أخباره وسيرته – من أولئك الأذكياء المنصفين الذين لا يتورطون فى حماقة تجميدِ الزمن والحجْر على المستقبل .

وهو – كما رأينا فى وصيته عند موته – من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير ولقد عاش حياته يناصر كل دعوة وكل داعية فى هذا السبيل .

* * *

وأبو طالب بعد هذا ، أعلمُ الناس برسول الله . .

فهو عمهُ ، وكافلهُ ، ومُربيه . .

إنه يعرفه إنساناً كاملاً . .

صادقاً ، لم يُعهد عليه كذب قط . .

أميناً ، لم تشب أمانته شائبة . .

طاهراً ، لم تَعْلَق به شُبهة . .

ولطالما رآه يتفجَّر شوقاً إلى رؤية الحقيقة . .

ولطالما رآه يضطرم همًّا وأسى على أهله وقومه الذين ألغَوْا عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً . . ! !

فهل يتخلى عنه . . ؟ هو الذى لم يكن سيتخلى عن أى غريب آخر جاء يحمل رايته ، ، ويعلن دعوته ؟ !

لقد كان « أبو طالب » عظيماً بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه . .

ولقد وقف إلى جانب الرسول ، والإسلام الناشئ – الموقف الذى

تمليه عليه رُجولته وعظمة نفسه .

* * *

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكايدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بدًّا من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم .

وذلك حين يئست من ثنى الرسول عن دعوته ، ومن ثنى أبى طالب عن مناصرته ، فقرر زعماؤها مقاطعة بنى هاشم وبنى المطّلب .

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، وأقاموا معه فى شعْبهم . . ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرءُوا به غوائل الجوع .

وأبو طالب كالطود شموخاً ورُسوخاً ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويُسلط عليهم موهبته الشعرية فينْفَحُهم بالقصيد تِلوَ القصيد .

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفرَ الثَّرى
ويصبح مَن لم يجْنِ ذنباً كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا
أواصِرَنا بعد المودة والقُرب
فلَسنا وربِّ البيت نُسلِم أحمداً
لِضرَّاءَ من عَضِّ الزمان ولا كَرْب
ولما تَبِنْ منا ومنكم سوالفٌ
وأيدٍ أُبِرَّتْ بالقُساسيَّةِ الشُّهْب

* * *

إن أبا طالب إذا آمن بشىء ، كان إيمانه قويًّا صُلباً . . نفس

الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده « علىٌّ » بلى وبنوه أجمعون . .

ولقد آمن « أبو طالب » بحق الرسول فى أن يقول كلمته ، ويبلغ دعوته . . فإن كانت حقًّا ، فمن حقِّ الحق أن ينتصر ويسود . .

وإن كانت باطلا ، فإن الباطل سيذهب جُفاء . .

من أجل هذا قاوم قريشاً عندماآهاتفرض الصمت على الرسول .

أجل . . إنه لا يقف مع « محمد » ابن أخيه . .

وإنما يقف مع « محمد » الداعى إلى الحق ، وإلى الخير . .

« محمد » الصادق والأمين . .

ولو شك « أبو طالب » فى صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره .

فهو إنما يُناصر فيه الحق ، لا القرابة . . ! !

وليس أدلَّ على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلَّط الأَرَضةَ على الصحيفة التى كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعلّقتها فى جوف الكعبة .

أنبأه الرسول أن الله قد سلط عليها الأَرَضة ، فأكلتها ولم تبق منها إلا اسم الله . .

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش فى ناديهم وقال لهم :

[يا معشر قريش . .

[إن ابن أخى أخبرنى بكذا ، وكذا فهلُمَّ صحيفتكم ، فإن تكُ كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها . .

وإن يكُ كاذباً . . دفعته إليكم] . . .

ورضى زعماء قريش بهذا . .

وقاموا إلى الكعبة ، وجاءوا بالصحيفة من مكانها فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسُقط فى أيديهم ، وخرج الناس من عهد المقاطعة ، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل . .

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حق الصدق فى أن يُحمى . . لا إلى حق القرابة فى أن تُشَايَع . . ! !

فهو يقول لقريش : إذا تبين صدق محمد فى هذه الواقعة التى يمكن التثبت منها فى يُسر ، فله عليكم الحُجّة . .

وإذا تبين كذبه ، فأنا لا أحمى الكاذبين . .

وحاشا رسولَ الله ألا يكون صادقاً . . ! !

ومن قبل هذا ، عندما ذهب وفد قريش إلى أبى طالب قائلين له :

[إن لك فينا سِنًّا ، وشرفاً ، ومنزلة . .

[وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنا . .

[وإنا لا نصبر على هذا ، من شَتْم آبائنا . وعيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا . .

[فإما أن تكُفّه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين] .

حين قالوا له ذلك . .

وحين جاءه رد الرسول :

[لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمرَ
فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى
يقضيَه الله ، أو أهلك دونه] .

ازداد الطود شموخاً ، والعزم مَضاء ، وراح البطل – أبو طالب – يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ، ويقول :

ولقـــد عَلمتُ بأن دين محمـــد من خير أديان البريّة دينـــا
والله ، لن يصلُوا إليك بِجَمعهم حتى أُوسَّدَ فى التراب دفينـا

مَرَّة أُخرى – هذا هو الرجل الذى من صُلْبه جاء « علىّ » ! !

* * *

كان يجلس ذات يوم فى سقيفة له ، عندما أقبل عليه الرسول حزيناً آسفاً . .

وتحرَّاهُ الأمر . فعلم منه أن قريشاً أَغرَت به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه روثاً ودماً وهو ساجد فى الكعبة يناجى ربه ، وخالِقَه . . ! !

فنهض من فوره ، حاملاً سيفه بيمينه ، متأبطاً ذراع النبى بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين ، ورآهم يتململون حين بصروا به مقبلا ، صاح فيهم :

[والذى يُؤمن به محمد ، لئن قام
منكم أحد ، لأُعاجلَنَّه بسيفى] . .

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ثم يقذف بهم على وجوههم جميعاً . . وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جُرذان . . ! !

ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول منالاً وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه . .

* * *

لقد أحب أبو طالب فى ابن أخيه كل الفضائل التى كان يعشقها ويقدسها ، والتى رأى الرسول يرفع لواءها فى ولاء منقطع النظير . .

ولقد عبَّر عن حُبه ذاك بإرادته الصُّلبة فى تلك المواقف التى رأينا طرفاً منها . . كما عبَّر عنها بموهبته الفنية فى شعره البليغ :

لقـد علموا أنَّ ابننا لا مُكذبٌ ... لدَينا ، ولا يُعنَى بقول الأباطل
حليمٌ ، رشيد ، عادل غير طائش ... يُوالى إلهاً ، ليس عنه بغافل
وأبيضُ ، يُسْتَسْقى الغمام بوجهه ... ثِمالُ اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

* * *

ومات أبو طالب . .

مات ، وملءُ فؤاده ميلٌ عارم إلى الدين الجديد ، وحنانٌ مُفيضٌ ، على رسوله المجيد .

واشتدَّ أذى قريش للرسول . .

وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم ، وجَّه لعمه تحية يستحقها حين قال :

[ما نالت منى قريش شيئاً أكرهُه .
حتى مات أبو طالب] ! !

ثم هز رأسه العظيم فى أسى وقال :

[يا عمّ . .
ما أسرعَ ما وجدتُ فقدَك] ! !

* * *

هل كان « علىٌّ » ابن هذا البطل فحسب . . ؟

لا . . بل كان حفيدَ بطل آخر ، عظيم أىِّ عظيم ! !

ذلكم هو : عبد المطَّلب . .

وبوقفة سريعة نقفُها مع فضائل عبد المطلب ، وسجاياه العظيمة ، يتبين لنا أن « علياً » لم يرثْ عن أبيه فضائل طارئة . . بل ورث فضائل أصيلة وعريقة ، سارت مَسير النور عبر أصلاب نقيَّة شامخة . .

فمن يكون ذلك السيد الماجد – عبد المطلب . . ؟

إنه الرجل الذى بلغ فى قريش وفى العرب جميعاً منزلة لم يكدْ يبلغها أحد .

وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم فى مواسم الحج كل عام ، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال ، الرجل الذى حفرها وتفجَّرت على يديه البرَّتين مياهها .

ومَن عساهُ يكون ، غير عبد المطَّلب . . ؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم ، هاتفاً هتف به فى رؤيا حق يقول له :

– احفر طَيْبَة .

واستيقظ من نومه ، لا يدرى ما تعبير رؤياه .

بيد أن الهاتف زاره فى الليلة التالية ، وقال له :

– احفر بَرَّة .

واستيقظ كذلك دون أن يدرى ماذا يُراد منه ، وماذا يراد له . .

وفى الليلة الثالثة نودى مرة أخرى فى منامه :

– احفر زَمْزَم . .

– قال : وما زمزم . . ؟ ؟

أجابه الهاتف :

– لا تنزفُ أبداً ، ولا تُذمّ .

تسقى الحجيجَ الأعظم ! !

ودُلَّ على مكانها . .

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه « الحارث » وذهبا حيث راحا يغوصان فى الأرض بمعاولهما ، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد الذى كانت الأقدار الرحيمة قد مَنحته إسماعيل وأمه وسط الصحراء اللاهبة فى الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال !

إن عبد المطلب ، أو « شيبة » كما كان اسمه الحقيقى ، لرجل فذّ ، من طراز باهر ، بقدر ما هو نادر . .

وهل يكون الجدُّ الأول لرسول الله . . ثم الجدُّ الأول لعلى بن أبى طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها . . ؟

لقد كان ذِكرهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى وعبيراً . .

ومن كثرة محامده دعاه الناس . . « شيبة الحمد » . .

وكان يصفونه بأن : (الرجل الذى يطعم الناس فى السهل ،

والوحوش فى الجبال) ! !

وكان غزير الحكمة ، عميق الإيمان .

عندما غزا « أبرهة » مكة ليهدم الكعبة . وجاء فى جيش لجب لا طاقة لقريش بمقاومته ، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها – عبد المطلب. – تسأله الرأى . .

فأمرهم عبد المطلب – وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف – أن يحملوا نساءهم ، وأطفالهم ، ومتاعهم ، ويغادروا مكة إلى شغاف الجبال ، تاركين البلد الحرام « مدينة مفتوحة » يتولى رب البيت حراستها . .

أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسوَّر الجبال وراءهم ليعتدى على أعراضهم ، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تمس أعراضهم بسوء . .

ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش ، فذهب إليه « عبد المطلب » .

وهناك ألقى على مسامعه كلمته المأثورة :

[أما الإبل ، فهى لى . . وأما البيت ، فله ربٌّ يحميه] .

* * *

لم يأخذ « شيبة الحمد » هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوى بالله وبقدرته .

من أجل ذلك ، لا يكاد يرجع من لقائه لـ « أبرَهة » حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام . .

وهناك يأخذ بحلقتى باب الكعبة ، ويمضى يناجى الله فى إيمان الواثق بنصره .

[لا هُمَّ إن المـرءَ يمنع رَحلَهُ ،
فامنعْ رِحالك] .

ولكن ، ماذا لو تركت الأقدار « أبرهة » يهدم البيت ، وأين يذهب عندئذ إيمان عبد المطلب بالله . . ؟

هنا يبزغ عمق إيمانه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً :

[إن كنتُ تاركهمْ وكعبتنـا ، فأمْرٌ
ما بدا لك] ! ؟

أجل . . فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يُحاذره من أبرهة وجيشه ، وهدمهم بيت الله الحرام . .

حتى إن حدث ذلك ، فإن إيمان « عبد المطلب » بالله لن يَزِلَّ ولن يخْبو . .

وسيحدث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله . . ! !

هذا إيمان رجل إلهى تموج الأرض من حوله بالوثنية – لا فى جزيرة العرب وحدها . . بل فى بلاد الحضارة نفسها – فى « فارس » و « الروم » فى حين يسيطر على وجدانه شعورٌ خفىٌّ بأن هناك إلهاً أسمى ، وأجلَّ ، وأعظم . .

إن إيمان « عبد المطلب » يبدو نقياً ، تقيًّا فى مناجاته تلك التى مرّت بنا الآن .

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلثمائة صنم ، لم يدعُها « عبد المطلب » لتحمى الكعبة . .

لم يُنادِ « هُبل » ولا « اللاّت » ولا « العُزَّى » !

ولم يناد شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التى لا يفصلها عن الكعبة بُعدٌ أو مسافة . .

إنما نادى الله . . وضرع إلى الله . ولجأ إلى العلىِّ الأعلى الذى كان شعوره الكامن فى أعماقه يدله عليه . . ويشير به إليه . . فقال مناجياً له وضارعاً :

[لا هُمَّ ، إن المـــرء يمنع رَحْله ،
فامنعْ رِحالك] ! !

* * *

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثُوبته العاجلة ، فى الضربة الماحقة التى وجهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه . . إذ سلط الله عليهم أضعف جنده . . طيراً أبابيل ، حملت إليهم المنايا ، وخلّفتهم صرعى وأحاديث !

كان عبد المطلب يُمْنَ قومه وبركتهم . .

وكأىٍّ من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم فيذهبون إلى شيخهم « عبد المطلب » الذى يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال ، حيث يضرع إلى الله كى ينزل المطر ، مبتهلاً بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيـــدك ، وأبنـــاءُ
عبيدك ، وقد نزل بنـــا ما ترى ؛

فأذهبْ عنـــا الجدب ، وأتِنـــا بالمطر
والخصب] . . ! !

فلا يلبثون إلا قليلاً . . ثم تجيء الأمطار كريمة رحيمة ، تُنبت ، وتحيي ، وتُنعش . .

* * *

الحق أنه إيمان عجيب . . إيمان هذا الرجل الفريد فى عصر كانت الوثنية دينه وصلاته . . ! !

إن عبد المطلب ، ليرى الله فى كل نعمة يُؤتاها . وفى كل خطوة يخطوها . .

عندما بُشر بمولد حفيده « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . . حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مُسرعاً إلى الكعبة حيث صلى لله صلاة شكر وحمد . . وراح يقول :

الحمـــد لله الذى أعطانى — هذا الغلامَ الطيّبَ الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان — أُعيـذه بالله ذى الأركان
حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم . . فأحبه حبًّا ما أحبَّ مثله أحداً . . وراح يعامله فى طفولته معاملة صديق ! !

وفى كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه « أبى طالب » ويضعها فى يد حفيده « محمد » عليه الصلاة والسلام ، ويقول لأبى طالب فى إحساسِ مَن يكاد يرى الغيب المقبل رَأىَ العين .

[يا أبا طالب . . .

[سيكون لابنى هذا شأن فاحفظه ،

ولا تدَعْ مكروهاً يصل إليه] ! !

ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابنَ أخيه ، ووصية أبيه ، رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ، وبعظمة سجاياه .

* * *

وحينما خلت الديار من الجدِّ ، ومن الأب ، كان « علىٌّ » الابن والحفيد . . ابن أبى طالب ، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة ، والعظمة المفردة . .

كان يحمل منها نبالة الخلُق . ونبالة الدم معاً . .

فبنو هاشم فى ميزان المجتمع ، سادته ، وقادته وأشرافُه . .

و « بنو هاشم » فى ميزان القيم ، أجود الناس كفًّا . . وأوفاهم ذمة . . وأنداهم عطاء . . وأكثرهم فى سبيل الخير بلاء . . وأحماهم للذِّمار . . وأحفظهم للجار . .

وبكلمة واحدة : هم فى قومهم وزمانهم ، ضمير أولئك القوم ، وذلك الزمان . . !

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه ، والحفيد عن جـدِّه . . ؟

ماذا تلقى « علىٌّ » من أبى طالب ، ومن عبد المطلب . . ؟

ماذا أخذ عنهما ، وماذا ورث ؟

لقد أخذ الفضائل كلها ، وورث المكرمات جميعها .

ورث عنهما « مضـــاء البــذل » و « مضاء العزم » و « مضاء العقيــدة » ! !

أجل . . هذه هى السِّمة المميِّزة لهذا الميراث الجليل . . المضاء الذى يجعل فضائل هؤلاء القوم مُهيأة دائماً للنجدة والعمل ! !

كل قُوى الخير فيهم مشحوذة ماضية ، لا تعرف الوهن ، ولا التردد ، ولا الاسترخاء .

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح فى « على » الابن والحفيد . . لا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة فى مختبرات الدين القيِّم ، والإسلام الحنيف ، فتُخرج خَبَثَها النفيس ويزداد ألقها الفريد . .

وثمة أمر آخر ، سنراه واضحاً فى حياة « على » ، كما هو واضح فى خصال جده عبد المطلب . . ذلكم هو التفويض الذى يكاد يكون مطلقاً . .

لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يُفوِّض الأمر إلى الله فى بساطة عجيبة ، بل قولوا فى مثل براءة الأطفال ! !

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين ، بل تفويض مؤمنٍ بأن الله هناك . . وراء كل حركة وكل عمل . . وأن ما تعجز قوى الخير من البشر عن إنجازه ، يتولى هو أمره وحسابه . .

تفويضٌ حلو ، ورائع . . ورثه فتانا فيما وَرِث . .

ولسوف نرى « عليًّا » فى مُقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد

الثقال ، يفوض الأمر إلى ربه فى فنٍّ عظيم . .

وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار ، لا استسلام العجزة .

وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه .

ذلك أن ابن أبى طالب ، فى حياته ، وفى صراعه لم يكن يعنيه إحراز أى انتصار لشخصه ، أو غلبة لذاته . . إنما كان يعنيه ، ويأسرُ لُبَّه ، ويستغرق وعيه وجُهده – فوز المبادئ التى آمن بها وحمل أمام الله مسئوليتهـا . .

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه .

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقًّا . .

وورث ولاء جَـدِّه عبد المطلب ، ومن قبل جـــده « هاشم » لما كانا يريانه حقًّا . .

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل ، وسَدَنَة الخير . .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذى إليه يلجأون ، وعليـه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقـوته القاهرة وفضله الرحيم كـان على الدوام مشحوذًا . . فكيف بولاء « على » وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه . . ؟ !

ولكن : كيف عرف . . وكيف اهتدى . . ؟ ! تعالَوْا لنرى . .

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والجليلة . .

إن الفتى الذى نقفو أثره ، هناك . .

إنه مع ابن عمه . . محمد بن عبد الله رسول رب العالمين . .

ذلك أن الرسول كان قد استأذن عمه أبا طالب منذ عهد بعيد ، وقبل موته ببضع سنين كى يترك له علياً ، يعيش معه فى داره ودار خديجة زوجه ، فأذن له . .

وإنه الآن فى تلك الدار التى يرسم الوحى داخل جدرانها خارطة عالم جديد مقبل ، وبشرية جديدة وافدة . . !

يا له من فتى مُبارك ، محظوظ . .

إن وراثاته المجيدة تزدهر الآن بين يدى أستاذ قدير . . هو ابن عمه ، وواصِلُه بربه ، وهاديه إلى صراط مستقيم .

فإلى هذه الدار المباركة ، لنصحبَ « علياً » فى رحلة حياته المجيدة . .

إليها ، تعالوا نمضِ خاشعين . .